المرأة إذا شاءت ...

بقلم رشيف خوري

في تلك السنة من القرن السادس الميلادي ، أوشك ان لا يكون للناس حديث الا هذه الحرب ، المندلع أوارها منذ أعوام ، بين بني عبس وبني ذبيان ، على اثر السباق المشؤوم . فلقد طال التناحر بين القبيلتين حتى كادت زهرة فتيانهما يحصدها السيف فلا تبقى أم عبسية أو ذبيانية الا وذاقت مرارة الثكل ولوعته .

ولكن الحارث بن عوف ، سيد بني مرة ، صرف الحديث عن الحرب الى أمر آخر استأثر بهمه كل استئثار. فهو يريد ان يتزوج . وهو معتز بماله وجاهه . فيقول لجليسه خارجة بن سنان المرّي :

ـ يا خارجة ! أتراني أخطب الى احد في العرب ابنته ، فيردني ؟

وشد ما كانت دهشته حين أتاه الجواب :

ـ نعم ، ان أوس بن حارثة بن لام الطائي يردك اذا خطبت اليه احدى بناته .

فوثب الحارث على فوره ، وصاح بغلامه :

ـ يا غلام ! ارحل بنا الى أوس بن حارثة الطائي ! لا تبطىء لحظة عين .

وركب الحارث ، وركب غلامه ، وركب سنان بن خارجة ، واندفعوا لا يلوون على شيء حتى بلغوا ديار أوس .

فقال أوس حين رأى الحارث :

ـ مرحبا بك .

رد الحارث :

ـ وبك أيضا . لقد جئتك خاطبا يا أوس . ولن انزل حتى تؤنسني بقبول .

أجاب أوس :

ـ يا صاحبي ، لست والله هناك (١) .

فارتبك الحارث وانصرف مغموما مقفل الشفتين .

أما أوس فدخل على امرأته ، فتبينت في وجهه غضبا ، فسألته :

ـ من الرجل الذي وقف عليك ، فلم يطل بينكما الكلام ؟

قال لها :

ـ يا اختعبس (٢) ، ذلك الحارث بن عوف المرّي .

ردت :

ـ الحارث بن عوف سيد العرب ؟! ما بالك لم تعزم عليه ؟ (٣) .

أجابها :

ـ ان الرجل استحمق !

قالت : وكيف ؟

قال : انه أتاني خاطبا .

فصاحت به : أوتريد أن تزوج بناتك ، ام انت تريد ان تبقيهن عوانس ؟ فان لم تزوج سيدا كالحارث بن عوف، فمن تزوج اذن ؟ أسرع فتدارك ما كان منك .

رد أوس بعد اطراق :

ـ أراك ، يا اخت عبس ، قد غلوت في الطلب . فكيف أتدارك ما كان مني ، وقد جبهت الرجل ؟

أجابت :

ـ تلحقه الساعة ، فتقول له : انك فاجأتني بأمر لم يتقدم فيه كلام ، فلم يكن عندي من الجواب الا ما سمعت . وسترى انه يثني عنان جواده فيتبعك .

فخرج أوس ، وركب في اثر الحارث .

وسمع خارجة بن سنان خبب جواد وراءهم ، فتلفت فرأى أوسا يسعى نحوهم .

فأقبل على الحارث فقال له :

ـ أرى الرجل يسعى في اثرنا !

فرد الحارث :

ـ وما شأننا به ؟ امض !

فلما رأى أوس ان الحارث ما زال يحث السير ، صاح به :

ـ يا ابن عوف ! اربع علي ساعة .

فوقف الحارث حتى دنا منه اوس وقال له :

ـ انك فجأتني يا رجل ، فلا تغضب ، وان لك عندي ما تحب .

فكأن سحابة انقشعت عن وجه الحارث ، فأشرقت أساريره ، وقال لأوس :

ـ ان كان ذلك ، فأنا عائد معك الساعة .

ودعا أوس الحارث بن عوف وغلامه وخارجة بن سنان الى خيمة أعدها للضيوف ، ثم دخل على زوجته فقال لها :

ـ لقد أصبت ، يا اخت عبس ، ها هو الرجل ينتظر في خيمة الضيوف . ادعي لي كبرى بناتنا .

فدعتها ، فلما صارت بين يدي أبيها قال لها :

ـ يا بنيّة ! هذا الحارث بن عوف ، من سادات العرب ، جاءني خاطبا ، وقد اردت ان ازوجك اياه ، فما تقولين ؟

فأطرقت لحظة ، ثم قالت :

ـ لا تفعل يا أبي .

قال ، وقد اتسعت عيناه بالدهشة :

ـ ولِمَ ؟

١ ـ يعني : انك لم تصب حاجتك في هذا المكان .

٢ ـ كانت زوجة أوس عبسية .

٣ ـ لم تدعه بالحاح .

قالت : لأن في وجهي ردة (٤) ، وفي خلقـــي بعض العهدة (٥) ، ولست بابنة عمه فيرعى ما بيننـــا مـــن رحم (٦) ، وليس بجارك في البلد فيستحي منك، ولا آمن ان يرى مني ما يكره فيطلقني .

ففكر أوس ، ثم قال :

ــ قومي يا بنية ، بارك الله عليك ، وادعي لي اختك الوسطـى .

فغابت الفتاة وحضرت اختها ، فقال لها أبوها :

ــ يا بنيَّة ! رأيت ان ازوجك الحارث بن عوف من سادات العرب . فانه أتاني خاطبا ، فما رأيك ؟

أجابته :

ــ اعفني يا ابي . فانت تعلم اني خرقـاء ، وليست بيدي صناعة ، ولا آمن ان يجد فيَّ ما يكره ، فيطلقني . وما هو ابن عمي فيرعى لي حقا ، ولا هو جارك في بلدك فيداريك .

قال ابوها :

ــ قومي ، بارك الله عليك ، وادعي لي بهيسـة ، اختك الصغرى .

فما لبثت الصغرى ان اقبلت عليه ، فخاطبهـا بما خاطب به اختيها من قبلها .

فأجابته : امض ، يا أبي ، في ما عزمت عليه .

فعجب أوس وقال :

ــ ولكني عرضت الامر على أختيك ، فخافتا ان يرى الرجل منهما ما يكره فيطلقهما .

فردت :

ــ وعلامَ اخاف ؟ وأنا الجميلة وجها ، الصناع (٧) يدا ، الرفيعة خلقا ، الحسيبة أبا ، فان طلقني فلا أخلف الله عليه !

فضحك أوس ، ثم خرج الى خيمـــة الضيوف ، فقال للحارث :

ــ اني زوجتك بهيسة ، بنتي الصغرى ، فهي التي قبلتك من أخيَّاتها جميعا .

فأجاب الحارث :

ــ واني قبلت ! وهـــذا حارثة بن سنان وغـلامي يشهدان علي . ولن أبرح حتى أحمل معي عروسي .

فعاد أوس الى امرأته، فأمرها ان تهيىء بنتها وتصلح من شأنها .

ثم أمر ببيت فضرب للحارث وانزل فيه ، ثـم بعث اليه عروسه .

فلم يلبث الحارث عندها هنيهة حتى خرج معجلا .

فسأله خارجة بن سنان :

ــ أبنيت بأهلك يا حارث ؟ (٨) .

فأجابه : لا والله . فاني ما دنوت منها حتى قالت : حياءك يا رجل ! أعند أبي واخوتي ؟ هذا والله لا يكون ... فأخجلتني .

٤ ــ تعني : ردة الى القبح .
٥ ــ العهدة : الضعف .
٦ ــ رحم : قرابة .
٧ ــ الصناع يدا : الحاذقة في الصناعة .
٨ ــ صيغة سؤال يقصد بها : هل أتممت فعل الزواج ؟

فقال له خارجة :

ــ اذاً ، ترحَّل بها .

وودعت الفتاة قومها . وانطلق بها الحارث يصحبه رفيقـــاه .

فلما أصبحوا على مسافة من ديار أوس ، انتحـى الحارث بعروسه ناحية ، ولكنه لم يلبث ان عاد .

فسأله خارجة : أتراك بنيت بأهلك ؟

فكان جوابه : لا والله ، قالت لي : أكما يفعل بالامة الجليبة (٩) ، والسبية الاخيذة (١٠) ؟ لا والله ، حتـى تنحر الجزور (١١) ، وتـذبح الغنم ، وتولم الولائم التـي تليق بمثلي .

فقال خارجة : يا حارث ! اني لأرى في هذه الفتاة همة وعقلا . وأرجو أن تنجب (١٢) .

وتابع الحارث رحيله حتى أتى دياره ، فأحضر الابل والغنم ، وهيأ الطعام ، ودعا الناس . ثم فـرغ ليخـــلو بعروســه .

فجبهته بقولها :

ــ أما عندك ، يا رجـــل ، مروءة تنهاك ، وشرف يردعك ؟

فجمد في مكانـــه لا يحير . ثم استجمع نفسـه فقال لها :

٩ ــ الامة الجليبة : الجارية المجلوبة شراء .
١٠ ــ السبية الاخيذة : المرأة المسبية في غزو .
١١ ــ الجزور : النياق .
١٢ ــ تنجب : تلد الاولاد النجباء .

قريبـــا

ثورة الفقراء

بقلم

رجـــاء النقاش

دراسة عميقة واعية للثـــورة الجزائرية العظيمـة وانجازاتها الضخمة .

منشورات دار الاداب

ـ قد ترين اني أحضرت من المال ما يرضيك ، وملأت قصاع الطعام ودعوت الجموع الحاشدة ، فماذا بعد هذا تريدين ؟ ولمَ تعرضين بمروءتي وشرفي وأنا السيد الكريم ؟

أجابت : أي سيد ؟! وأي كريم ؟! تفرغ للنساء ، والعرب يقتل بعضها بعضا ؟! هذه عبس أوشكت ان تفني ذبيان ، وتلك ذبيان توشك أن تفني عبس ، والارض تحتج للدم المراق . اخرج الى القوم فامش بينهم بالصلح ، وانههم عن هذا السفه . ويومئذ أنت السيد الكريم !

فخرج الحارث يتفصد جبينه عرقا .

ولقيه خارجة بن سنان فسأله :

ـ لعلك بنيت بأهلك يا حارث ؟

فكان جوابه :

ـ لا والله .

فدهش خارجة ، وقال :

ـ ولمَ يا حارث ؟

ـ ما رأيت كاليوم فتاة عرّضت بمروءتي وشرفي لاني أفرغ للنساء ، والعرب يقتل بعضهم بعضا .

ـ أما قلت لك ان في هذه الفتاة همّة وعقلا ؟ فماذا أنت فاعل ؟

ـ وهل بقي ، يا خارجة ، سبيل الا ان أمشي الى عبس ، والى ذبيان ، فأسعى بالصلح بينهما ؟!

ـ واني اعرف لك شريكا في هذه المحمدة هو هرم بن سنان . فلقد أقسم بأن يدفع من ماله ديات القتلى اذا كفّت القبيلتان عن الحرب ...

قال الحارث :

ـ لعلهم استقلوا الديات . فأنا أدفع من مالي فنضاعف دية كل قتيل ونحقن الدماء .

قال خارجة :

ـ انهم حسبوا الديات ، فاذا هي ثلاثة آلاف بعير .

ـ لتكن ثلاثة آلاف بعير ! فأنا وهرم بن سنان ندفعها . هيا بنا .

*

وقدّر للحارث بن عوف وهرم بن سنان ان يصلحا بين عبس وذبيان ، ويدفعا ديات القتلى من القبيلتين ثلاثة آلاف بعير ، ويحسما الشر ، ويحقنا الدماء .

وكان ذلك كله بفضل امرأة .

ولما دخل الحارث بن عوف على عروسه بهيسة يبشرها بالنبأ ، فتحت له ذراعيها تعانقه ، وقالت :

ـ أهلا بالسيد في العرب ! اليوم قمت بحقي ، لا يوم نحرت الجزور والغنم وملأت بطونا في عرس .

وتسامع الناس بما كان من حديث هذه المرأة في دفع البلاء وحقن الدماء ، فقال أحدهم :

ـ يا للمرأة اذا شاءت !

وقال ثان :

ـ على ان تشاء الخير !

فقال ثالث : ولكنها لا تشاء الا الخير ! لن تشاء تدمير الحياة ما دامت أما ، تتجدد بها الحياة .

رئيف خوري

اغنية عربية

* * *

صلواتي لاله الريح
قرباني في العتمه
ما قدمت من دم ونار
أغنياتي للنهار
كلها عادت الى كفي في الموسم
عادت مطرا ، خصبا ، ثمار ..
سكرت من حملها داليتي
والدن في القبو تهادى والجرار ..
ما يريد « البوم » ؟
غطى بيدري الشمسَ
وحقلي الافق ،
ماذا ؟
ما يريد «البوم» مني ؟!
ضيق الفسحة في عيني المدار ..

* * *

يا اله الريح يا من نحن صلينا ليأتي
ورعينا عدوه في السهل سرا والوهاد
(يوم ما كانت رياح في الوهاد)
يا حكايا الخاتم المسحور والجني
يا اغنية تسمع في الصمت
وذكرى تستعاد
يا صدى من شهرزاد
أي بشرى ؟ ـ
بمعاد أبدي عدت للارض التي
غنّتك ميلادا وصلتك معاد ..
من وراء القبر والعتمة
من افق الرماد
عدت للارض التي غنتك ميلادا
وصلتك معاد ..

* * *

صلواتي لاله الريح
ما قدمت من دم ونار
اغنياتي للنهار
كلها عادت الى كفي ثمارا
والى القبو خمورا في الجرار
كلها سدت دروب « البوم »
شدت حوله سورا
وخلّت اخضر الفسحة في عيني المدار .

قطر ـ دخان

حسن النجمي